العصر البربرى

استنجد ملوك الطوائف بدولة بربرية حديثة النشوء فى المغرب وذلك بعد سقوط طليطلة، وقد جاء المرابطون فعلا، لكنهم بدلا من نجدة الأندلسيين والعودة إلى بلادهم قرروا القضاء على ملوك الطوائف وحكم الأندلس، وقد تمكنوا من تحقيق ذلك واستمروا فى الأندلس منذ (١٠٩١/٤٢٢) حتى (١١٤٦/٥٤١).

ولما كانت فترة حكم الطوائف فترة حرية وازدهار للعلم والأدب (حتى لو كانت فترة ضعف سياسى وعسكرى) فإن الشعر الأندلسى وصل إلى درجة رفيعة من الشاعرية والجمال، وافترقت تقنيته بين المقطوعة ذات الطابع القصصى الطريف، وبين القصائد الطويلة. المقطوعة مجال للتفنن والإبداع، والقصيدة مزجت بين النفعى (كالمدح والرثاء بل والغناء الدينى) والجمالى كما رأينا.

ولم يكن من الممكن محو هذه الصورة على يد المرابطين الذين (رغم تقواهم) كانوا أميين، وأطلقوا يد الفقهاء فى المشاركة فى السلطة والحكم (وهؤلاء أعداء للشعراء فى الأندلس خاصة). والذى حدث هو أن الشعراء، بسبب أمية الحكام المرابطين، ثم بسبب غلظة الفقهاء، وأخيراً بسبب اختلال الأمن فى أواخر حكم المرابطين، لم يجدوا سوقا لشعرهم فظهر تيار يمكن أن نطلق عليه "الفن للفن". وفى ظل هذا التيار تزدهر التقنيات التى بدأت فى عصر ملوك الطوائف، وأبرزها الغزل المبتكر، واتخاذ الطبيعة موضوعا وتقنية فى ذات الوقت، بمعنى أن الشاعر يعمد إلى وصف الطبيعة (فتصير موضوعا)، وهو أيضا يستخرج من الطبيعة صورا تتكثف بها مشاعره وعواطفه، ويرى من تلك الطبيعة أمًّا رؤوما من ناحية، ووحشا يأكل أبناءه

(فتصير الطبيعة تقنية للتصوير العاطفى وللتأمل الميتافيزيقى).

ويسقط حكم المرابطين فى المغرب وتحل محلهم دولة بربرية جديدة هى دولة الموحدين (٥٤١/١١٤٦-٦٦٨/١٢٦٩) ، الذين عبرت جيوشهم إلى الأندلس واستولت على ما تبقى منها فى يد المسلمين (مرابطين ومتمردين أندلسيين حكموا شرق الأندلس). والفرق بين المرابطين والموحدين هو أن الموحدين يجيدون اللغة العربية ويتذوقون الأدب العربى (بعكس المرابطين)، فعاد للأدب سوقه بعد أن كاد أن يختفى إلا بين بعض الأعيان والأثرياء من أهل الأندلس، والذين فيما يبدو كانوا يفضلون الزجل والموشحات.

لكن السوق مشروطة بأيديولوجية الموحدين التى تراوحت بين الحرية (فازدهرت العلوم والفلسفة) وبين اضطهاد الفكر والعلماء، من هنا كان الشعراء يلتزمون حذراً شديدا، صرف بعضهم عن مدح الموحدين والاعتزال مع إحساس عميق بالغربة (مثل الرصافى البلنسى)، أو صرف بعضهم عن الحياة جملة، فسلكوا طريق التصوف (وحتى هؤلاء فيما يبدو أجبروا على الهجرة إلى المشرق (ابن عربى، أبو الحسن الششترى)، أو التعرض للقتل (ابن خميس).

وقد أدى الحذر عند معظم الشعراء إلى تصنيع الشعر والبعد عن التلقائية والطبع، من هنا سوف تستمر مدرسة ابن خفاجة (والتى هى قمة تطور شعر عصر الطوائف)، ولكن هذا هو ظاهر الأمر، لأن الحقيقة أن الشعراء أبقوا الموضوعات الشعرية دون التقنية الصادقة، لتحل محلها تقنية زائفة نضرب لها مثلا قول ابن سهل الإسرائيلى يتغزل:

لو لم تكن مــن دم العنقــود ريقتــه لما اكتــمـى خــدُّه القــانى أبــا لهــب
تبَّــت يــدا عــاذلى فيــه، ووجنتــه حمّالـــة الـــورد لا حمّالـــة الحطـــب

أو قوله فى وصف الربيع

جـــاء الربيـــع ببيـــضه وبـــسوده صـــنفان مـــن ســـاداته وعبيـــده
جـــيش نوابلـــه الغـــصون وفوقهـــا أوراقهـــا منـــشورة كبنـــوده

يقصد بالبيض هنا الأزهار، ويورّى بالسيوف أما السود فهى الخضرة ويورّى بالدروع، ثم يشبهما معا بالسادة (البيض)، وبالعبيد (السود). ومع أن ليس كل أبيض سيدا وليس كل أسود عبدا، إلا أن هذا ليس المشكلة، إنما المشكلة فى أن الشاعر فى البيتين الأولين (ومثلهما هذا البيتان) يتظرف دون ظرف، وإنما ثقل دم وبعد عن الشاعرية الحقّة.

ونفس هذا التظرّف (أقصد التصنع) نجده عند ابن الأبّار مستخدما خاصية تتمتع به زهرة (الخيرى) حيث تفتح بتلاتها ليلا وتغلقها نهارا، فكأنها تسهر مثل الأدباء :

لـــك الخـــير أمتعنـــى بخـــيرى روضـــة لأنفاســـه عنـــد الهجـــوع هبـــوب
ألـــيس أديـــب النَّـــوْر يجعـــل ليلـــه نهـــارًا فيـــذكو تحتـــه ويطيـــب
ويطـــوى مـــع الإصـــباح منـــشور نـــشره كمـــا بـــان عـــن ربـــع المحـــب حبيـــب
أهـــيم بـــه عـــن نـــسبةٍ أدبيـــة ولا غـــرو أن يهـــوى الأديـــب أديـــبُ

ولاشك أننا سوف نحس انفصام الصلة الحميمة التى كانت بين ابن خفاجة (وجيله) وبين الطبيعة، فهنا نرى عاطفة زائفة وظرفا غير ظريف بل ثقيل الظل. وهذا مطّرد عند الشعراء الذين تفرغوا لمدح الموحدين، وقبلوا تلك الحياة دائمة الحذر والتكلف وعدم الصدق، أما الشعراء الذين لم يحتملوا تلك الحياة مثل الرصافى البلنسى، فقد عاد إلى الفن، كما نرى فى قصيدة له يحن إلى بلسنية مسقط رأسه :

خليلىَّ ما للبيد قد عبقت نشرا ... وما لرؤوس الركب قد رُنِّحت سُكرا
هل المسك مفتوقا بمدرجة الصَّبا ... أم القوم أجروا من بلنسية ذكرا

ثم يقول :

بلادى التى ريشت قُوَيْديمتى بها ... فُرَيْخاً وآوتنى قرارتها وكرا
مبادئ لين العيش فى ريِّق الصِّبا ... أبى الله أ، أنسى لها أبدا ذكرا
أكل مكان راح فى الأرض مسقطا ... لرأس الفتى يهواه ما عاش مضطرا

ثم يقول :

بلنسية تلك الزُّبرجدة التى ... تسيل عليها كل لؤلؤة نهرا
كأن عروسا أبدع الله حسنها ... فصيَّر من شرخ الشباب لها عمرا

ومع كل هذا الفن والتلقائية والحنين إلى الوطن تعبيرا عن الغربة، فهو فى مراحله الأولى حينما كان يمدح لا يختلف عن ابن سهل أو ابن الأبّار، فكلهم تبعوا – فى تكلف– أسلوب المقطوعة السردية والتى تحاول التظرف وخلق النكتة، ذلك

الأسلوب الذى بدأ مع الطليق المروانى وجيله، وأخذ صورته الناصعة المكتملة عند ابن الزقاق. وها هو الرصافى يصف نجارا :

شـــقاوه أعـــواد تـــصدّى لجهـــدها ... فآونـــةً قطعًـــا، وآونـــةً ضـــربا

غـــدت خـــشبا تجنـــى ثمـــار جنايـــة ... بمـــا اســـترقته مـــن معاطفـــه قـــضبا

محاكاه ثقيلة الظل لمقطوعة لابن الزقاق التى يقول فيها :

وريـــاض مـــن الـــشقائق أضـــحت ... يتهـــادى فيهـــا نـــسيم الريـــاح

زرتهـــا والغمـــام يجلـــد منهـــا ... زهـــرات تـــروق لـــون الـــراح

قلـــت : مـــا ذنبهـــا ؟ فقـــال مجيبـــاً ... ســـرقت حمـــرة الخـــدود الملـــاح

فقد جعل (الغمام) يجلد الورد لسرقته خدود الملاح، وشتّانَ ! ومع كل هذا فسوف يزدهر فن رثاء المدن، وسيتصف بالصدق والتلقائية، حتى أن الناس كانـت تـردده، فصار أشبه بالفن الشعبى الذى تتعدد نسخه، فمع كل ترديد يضيفون أبياتا، ويدخلون فى القصائد مآسى مدن جديدة سقطت. وسوف يستلهم الشعراء هذا الفن الأندلسى، كلما عانوا مأساة سقوط مدينة من مدائنهم، وأشهر من فعل ذلك من شعراء العصر الحديث الشاعر الفرنسى "أراجوان" فى قصيدته الطويلة عن سقوط باريس فى الحرب العالمية الثانية، وهو يقارنها بسقوط غرناطة، ويرى أن سقوط المدينة مثـل ســقوط البطـل التراجيدى النبيل : قدر قاس يعاقب من لا يستحق العقاب.